

الفصل الثالث

الحكم الأخلاقي — مقياس الحكم الأخلاقي —
 الرأي الشخصي — العرف — الوجدان —
 العقل والاستدلال — تربية الحكم الأخلاقي

تصدر من الانسان أحكام كثيرة متنوعة، فاذا قال: «المبتدأ مرفوع» فهذا حكم نحوي لا أخلاقي، واذا قال: «الأجسام تمتد بالحرارة» فهذا حكم طبيعي لا أخلاقي، انما الحكم الأخلاقي هو أن تحكم على الشيء بأنه خير أو شر، فالصدق خير حكم أخلاقي، والكذب شر كذلك.

وقد علمنا مما تقدم أن الحكم الأخلاقي لا يصدر إلا على الأعمال الإرادية، فلما لم تكن ارادة لا يصدر حكم أخلاقي، فلو فاض النيل فأغرق كثيرا من البلدان، أو هبت عاصفة فدمرت بلادا، أو هاجت الأمواج فأغرقت سفنا، لا نحكم على هذه الأعمال بأنها شر، اذ لا ارادة، واو فاض النيل في اعتدال فروى الأرض وأفادها، وهب نسيم عليل فأزهر النبات وأنعش النفوس

لم نحكم على ذلك بأنه خير، كذلك إذا جمح حصان فأوقع راكبه، أو سار سيرا حسنا فأوصل صاحبه إلى غايته لا نحكم على عمله بأنه شرفي الأولى ولا خير في الثانية ما دمنا لا نعترف للخصان بإرادة - وكذلك أعمال الإنسان غير الإرادية كالتى سبق شرحها.

والآن نريد أن نسأل : قد عرفنا ما نحكم عليه من الأعمال بأنه خير أو شر وما لا نحكم، ولكن إذا أردنا أن نحكم فهل نحكم على العمل باعتبار نتائجه أو باعتبار الغرض الذى أراداه العامل من عمله ؟ ولتوضيح ذلك نقول :

إن هناك غرضا للعامل من عمله، وهذا يسبق العمل، وهناك نتائج تحصل من العمل وهذه تلحقه، فمثلا قد يقرر جماعة من الأطباء بعد الفحص إجراء عملية لمريض، ثم يتبين بعد إجرائها أن الفكرة كانت خطأ، وأنه كان الأولى ألا تعمل، ثم يموت المريض منها، فغرض الأطباء أن يشفى المريض، ولأجل هذا أقدموا على ما عملوا، ولكن النتيجة أنه مات، وهذا الغرض كان قبل العمل، وهو غرض حسن، والنتيجة حصلت بعد العمل، وهى سيئة، فهل نحكم على الأطباء باعتبار غرضهم أو باعتبار نتيجة عملهم ؟ وهكذا كثير من الأعمال، كرجال حكومة أعلنوا

الحرب على أمة أخرى لأنهم رأوا خير أمتهم في ذلك، وقد رأوا قوتهم أكبر من قوة عدوهم، وحسبوا أن ما يغمون من الفوائد أكبر مما يفقدون من جنودهم وأموالهم، ولكن خاب ما أملوا، فهُزِموا وسُلبوا بعض الولايات، ففرضهم كان الخير لأمتهم، والنتيجة كانت شراً لها، فعلى أى اعتبار نحكم؟ وكذلك العكس، فقد يريد الإنسان شراً ثم تكون النتيجة خيراً، كمن يريد أن يغش آخر فيغريه بشراء شيء يظن فيه الخسارة له، فيغش الشاري من وراء ذلك ربها كبيراً، فالغرض شر والنتيجة خير، فهل نحكم على العمل بأنه شر تبعاً للغرض أو خير تبعاً للنتيجة؟

الحق أن العمل يجب أن يحكم عليه بأنه خير أو شرّ نظراً للغرض العامل منه لا نظراً لنتيجته، فالعمل الذي قصد به الخير خير مهما استتبع من النتائج، والذي أريد به الشرّ شرّ ولو استتبع نتائج حسنة، فقبل الحكم على عمل ينبغي أن نعرف غرض العامل منه — أما العمل في ذاته من غير نظر إلى الغرض منه فليس بخير ولا بشرّ، فلو سألتني هل إحراق أوراق مالية قيمتها ألف جنيه خير أو شرّ؟ لأجبتك : لا يمكن ذلك حتى أتبين غرض العامل من عمله، فقد يكون شرّاً إذا أراد من إحراقها الانتقام من مالكيها، وقد

يكون خيرا كما اذا قُدمت رشوة لقاض ورأى القاضى أن لاسبيل الى تأديب الراشى إلا إحراقها .

ولما كان الحكم الأخلاقى يعتمد على معرفة غرض العامل من عمله لم يجوز لنا أن نصدر الحكم بالخير أو الشر إلا على أنفسنا أو على من نتحقق غرضهم من أعمالهم ، إما بأخبارهم ، أو بقيام القرائن على أغراضهم ، فاذا رأينا من انسان عملا فلا نعجل بالحكم عليه ، بل يجب أن نترث حتى نعرف غرضه منه .

نعم هناك أحكام أخرى تصدرها على العمل باعتبار نتائجه لا باعتبار الغرض منه ، وذلك كالحكم على العمل بأنه نافع أو ضار ، فإنه انما يصدر باعتبار نتيجه ، والحكم على الشيء بأنه نافع أو ضار غير الحكم عليه بأنه خير أو شر ، كلاهما ينظر الى الشيء من جهة غير التى ينظر اليها الآخر ، فعمل الأطباء فى المثال السابق خير ضار ، خير لأنهم قصدوا الى شفاء المريض ، وضار لأن النتيجة كانت وفاته ، وهكذا ، ولكن يجب أن نعلم أن الحكم على الفعل بأنه نافع أو ضار تبعا لنتائجه ليس حكما أخلاقيا ، انما الحكم الأخلاقى هو الحكم بأنه خير أو شر تبعا للغرض منه .

والإنسان لا يلام على عمل عمله يريد منه الخير مهما ساءت نتائجه ، بشرط أن يكون قد بذل جهده فى معرفة ما ينتج من عمله ،

وإنما يلام إذا كان في استطاعته أن يرى النتائج إذا دقق في البحث وأنعم النظر ثم لم يفعل ، فموضع اللوم هو التقصير عند اختيار العمل ، وعدم الدقة في حساب نتائجه ، وليس موضع اللوم هو ارادة العمل الصالح ، ففى مثل الأطباء السابق لا لوم عليهم إذا كانوا بذلوا أقصى جهدهم في خصمهم وأتت النتيجة بما ليس في حسابهم ، إنما يلامون إذا قصرُوا في الحكم وبنوا حكمهم على نظر سطحي غير دقيق .



في جميع ما تقدم كان الحكم الأخلاقي يصدر على العمل ، ولكن نرى أحيانا أن الحكم الأخلاقي يصدر على العامل ، فيقال : إن فلانا طيب وفلانا خبيث أو أنه خير أو شرير ، فما الذى نلاحظه عند حكمنا هذا الحكم ؟

عند ما نحكم على العامل نلاحظ « حاصل الجمع » لما يأتى به من أعمال . فقد عرفنا — قبل — ما هو العمل الخير ، وما هو العمل الشر ، فالآن نذكر لك أن الرجل الخير أو الطيب هو الذى يصدر عنه من الأعمال الخيرة أكثر مما يصدر عنه من الشر ، والرجل الشرير هو الذى يكثر منه صدور الأعمال الشريرة ، ومن هذا نستنتج أن الرجل الخير قد يأتى بعمل شر ولكن يكون الغالب

عليه عمل الخير، لأننا في حكمنا على العمل إنما نلاحظ الغرض من عمله وفي حكمنا على العامل نلاحظ مجموع أعماله في حياته .



ولكن بأي مقياس أقيس الشيء فأحكم عليه بالخير أو الشر؟ إن الناس كثيرا ما يختلفون في نظرهم الى الشيء الواحد فمنهم من يراه خيرا ومنهم من يراه شرا، بل الشخص الواحد قد يرى الشيء خيرا في آن ثم يراه شرا في آن آخر، فما هذا المقياس الذي بمراعاته تصدر هذا الحكم؟ وأي شيء يراعيه الناس فيقولون: إنه خير أو شر؟

للإجابة على هذا السؤال نستعرض المقاييس التي يستعملها الناس، وقد رأى الباحثون أن الحكم الأخلاقي تدرج في الرقي بتدرج الناس، فهم في حالة سذاجتهم ينظرون الى الأشياء ويحكمون عليها بمقياس، ثم اذا ارتقوا قليلا تغير مقياسهم وحكمهم، وهكذا حتى يصلوا الى درجة كبيرة من الرقي فيسمو كذلك حكمهم الأخلاقي، ولتتبع الآن الأدوار التي مرت بها الناس .

العرف — فأقول دور مملوكه في معرفة الخير والشر

« العرف » — ونعني بالعرف « عادة الأمة » فاذا اعتادت أمة عملا وكان فاشيا فيهم فذلك عرف، فزيارة القبور في الأعيا عادة

للمصريين، فهذا عرف، وعادة كل أمة في ملبسها ونظام معيشتها ونحو ذلك يسمى عرفا .

ولكل أمة عرف خاص تعمد خيرها في أتباعه ، وتؤدب الأطفال به ، وتشعرهم بأن فيه شيئا من التقديس ، وإذا خالفه أحد استهجنتم عمله وعذته خروجا عليها ، فمن الصعب الخروج على المألوف من عرف في الملبس والمأكل ونظام الأفراح والمآتم وطرق التحية ونحو ذلك .

والناس منساقون الى تنفيذ ما يقضى به العرف، وذلك بتأثير الرأي العام، فالناس — عادة — يمدحون متبعي العرف، ويسخرون من مخالفه ، فلو خرج أحد على عادة الأمة في زيها أو أفراحها ومآتمها أو طرق تحياتها كان موضعاً للنقد القاسى .

وفي أيام سذاجة الناس وبدائتهم لم يكن لهم مقياس يقيسون به العمل إلا العرف، فهم يحكمون على العمل بأنه خير لموافقته للعرف وشر لمخالفته له ، ولا يزال كثير من الناس في كل أمة مهما بلغت من الحضارة يعملون ما يعملون لا لسبب إلا أنه يتفق وعادات قومهم، ويحتنبون ما يحتنبون لأن قومهم لا يعملون — فمقياس الخير والشر في نظرهم هو العرف، وبه يصدر عن أحكامهم على الأشياء .

فلما آرتقى الناس تبين لهم أن العرف لا يصح أن يتخذ مقياسا ،
 فبعض أوامره غير معقول ، وبعضها ضار - فوَاد البنات كان
 عرفا لبعض قبائل العرب في الجاهلية ، وهو عرف ضار نراهم
 الاسلام عنه وأبان ما فيه من خطأ ، وعند الرومان كان الأب له
 الحق في إماتة أولاده وإحيائهم ، والرق مع ما كان فيه من معاملة
 قاسية كان فاشيا في كثير من الأمم ، وعادات المصريين في أفراحهم
 وما تمهم عرف ضار وهكذا .

واذا كان العرف قد يخطئ ويدين الخلف سوء ما كان عليه
 السلف لم يصح أن يكون مقياسا صحيحا نقيس به الأعمال فنحكم
 عليها بالخير أو الشر .

ولو أن الناس جروا على مبدأ العرف لم يتقدم العالم عما كان
 عليه من قديم ، لأنه إنما يتقدم بأولئك الذين يرون خطأ العرف
 فيجاهرون بخالفته ، ويدعون قومهم للخروج عليه ، فيلنف حولهم
 كثير من الناس ، يأخذ رأيهم في الانتشار حتى يحل الحديد
 الحق محل القديم الخطأ .

ومع هذا فإن جرى الناس على هذا المقياس كان له بعض
 الفائدة ، فقد حمل كثيرا أن يأتوا بالمعادات الصالحة ويمتنعوا عن
 السيئة جريا مع العرف ورجاء لمدح الناس وخونا من ذمهم .



الرأي الشخصي — يلاحظ الذين يدرسون القبائل في حالتها الأولى من البداوة أن الفرد من القبيلة لا يحس احساساً قوياً أنه فرد مستقل بذاته ، وإنما يغلب عليه الاحساس بأنه جزء من قبيلة ، يحيا بحياتها ويموت بموتها ، ويظهر هذا ظهوراً بلياً حين نقرأ الشعر الجاهلي فنرى فيه أن شخصية الشاعر اندمجت في قبيلته حتى كأنه لم يشعر لنفسه بوجود خاص ، وتبين ذلك بجلاء في معلقة عمرو بن كلثوم — وقُلَّ أن تعثر على شعر من أشعار الجاهلية ظهرت فيه شخصية الشاعر ، ووصف ما يشعر به وجدانه ، إنما هو كثير التحدث عن قبيلته وأخبارها وأفعالها .

وفي هذا الدور لا يكون للأخلاق مقياس إلا العرف ، فليس للفرد رأي شخصي يقوم به الشيء ليحكم عليه بأنه خير أو شر بل ليس له إلا أن يستحسن ما استحسن قومه ويستقبح ما استقبحوا ، فهو لا يأتي بعمل أو يتجنب عملاً بناء على تفكير منه ووزن له ، بل لأن قومه يأتونه أو يمتنونه .

فاذا ارتقى الناس عن هذا الدور شعر الفرد بأنه — وإن كان عضواً في مجتمع — فله شخصيته ، وإن نفسه مستقلة عن قومه ،

وأن له مصالح شخصية كما أن لقومه مصالح ، وإن عقله من الاستقلال بحيث يستطيع ألا يخضع للعرف خضوعاً أعمى ، بل فى قدرته أن يزن الأعمال فيحكم عليها بالخير أو الشر وإن خالف العرف .

نرى هذا فى التاريخ دائماً ، فعند نهوض كل قوم وأخذهم بحظ كبير من الرقى يظهر أفراد يخرجون على التقاليد الموروثة المتعارفة إذا رأوها ضارة ، ويزنون الأشياء وزناً جديداً ، فيعلنون استحسانهم لأشياء يستهجنها عرفهم ، ويستقبحون أشياء يستحسنها العرف ؛ وينتشر رأيهم شيئاً فشيئاً حتى يميل الناس إليه ، ويقتنعوا به ، وبهذا تنكسر قوة العرف - حصل هذا فى عصر السوفسطائيين فى اليونان ، وفى عصر النهضة فى روما ، وفى أيام الثورة الفرنسية فى فرنسا وهكذا .

فى هذا الدور يشعر الإنسان أن العرف غير صالح لأن يكون مقياساً ، وإن له من القوة ما يمكنه من تقويم الأشياء والحكم عليها ، ولكن يتساءل بم يقومها ؟ كيف يعرف الخير والشر ؟ ما الذى يضعه محل العرف ليعرف الحق من الباطل ؟ وعند ذاك يأتى دور البحث العلمى .

الوجدان — أجاب قوم عن هذه الأسئلة المتقدمة بأن
 في كل انسان قوة غريزية يميز بها بين الحق والباطل ، فكل انسان
 اذا عُرِض عليه عمل تلهمه هذه القوة انه خير أو شر ، وهذه القوة
 مُنِحناها لتمييزها بين الخير والشر كما منحتنا العين لنبصر بها ، والأذن
 لنسمع بها ، والحكم الأخلاقي يعتمد على هذه القوة فيصُدَّرُ
 بالاستحسان أو الاستقباح ، وقد ذهب بعض العلماء الى أن
 أساس هذا الحكم هو ”الوجدان“ ويعنون به شعور الانسان
 الطبيعي بالارتياح من العمل أو النفور منه كالارتياح والنفور
 الذي يشعر به الانسان عند رؤيته شيئا جميلا أو قبيحا ، فعند
 ما توسوس له نفسه بالكذب أو بسرقة يشعر باشمئزاز طبيعي من
 إتيان ذلك فيحكم عليه بأنه شر ، وكذلك عند ما يسمع خبرا
 باغاثة ملهوف أو إحسان الى فقير أو عدل في حكم يشعر بارتياح
 طبيعي فيحكم على ذلك بأنه خير .

وقد تصاب هذه القوة الوجدانية بمرض فترى الخير شرا
 والشر خيرا كما تصاب كل حاسة بالمرض ، وكما تخطئ القوة العقلية ،
 فكما أنا لو أعطينا عددا من التلاميذ مسائل حسابية فبعضهم
 يخطئ في حلها وبعضهم يصيب ولكنا نعرف أن هؤلاء أصابوا
 وهؤلاء أخطؤا كذلك يختلف الناس في صحة الوجدان ومرضه ،

فبعضهم يحكم بالشرّ على ما يحكم عليه الآخر بالخير، ويمكن أن نعرف المخطئ من المصيب، وسيأتى توضيح ذلك عند الكلام على مذهب اللّقانة .

العقل والاستدلال — ويرى علماء آخرون أن ليس في الانسان قوة طبيعية يحكم بها على الأعمال، إنما نحكم عليها بالعقل والاستدلال، فليس في الانسان حاسة غريزية يدرك بها الخير والشرّ، ولكن يحكم عليها بمقتضى تجاربه، فالناس عملوا أعمالا، ولاحظوا ما ينتج عنها، فأروا نتائجها حسنة فحكموا بخيريتها، وعملوا أعمالا رأوا نتائجها سيئة فحكموا عليها بالشرّ، وليست القوة الأخلاقية التي نعرف بها الخير والشرّ إلا عقلنا وتجاربنا، واستمرار الأمة في تجاربها يفضي بها الى تعديل آرائها في الأشياء، والسبب في تغير آراء الأمم والأفراد في الحكم على الأشياء هو اتساع مداركها بكثرة تجاربها وملاحظاتها واستدلالها، وسيتضح ذلك عند الكلام على المذاهب الأخلاقية .

من هذا ترى أن الحكم الأخلاقي تدرج بتدرج الناس في الرقي، فكانوا أول أمرهم لا مقياس لهم إلا العرف ثم فهموا أن العرف لا يصح أن يكون مقياسا، فجاء بعد ذلك دور البحث والتفكير العلمي .

وكذلك ترى أن العرف — أولاً — كان هو المقياس ولكنه مقياس خاص بالأمة وحدها ، اذ كل أمة لها عرفها ، فلما جاء دور البحث العلمى أصبح الحكم الأخلاقى ينبى على أسس عالمية ، وبعبارة أخرى أصبح ينبى على مبادئ عامة تصلح لكل أمة فى كل عصر ، وسنوضح تلك المبادئ والمذاهب المشهورة التى أدت إليها البحث فى الفصل التالى .

تربية الحكم الأخلاقى — قوة الحكم الأخلاقى ترقى برقى الانسان ، فهو يولد وعنده جرثومة الحكم الأخلاقى ، تولد معه حسب قانون الوراثة .

ثم ينشأ فى أسرته فيراهم يمدحون أشياء ويذمون أخرى ويكافئون على أعمال ويعاقبون على أخرى ، فينمو عنده الحكم الأخلاقى بذلك ، ويتبع أسرته فى مدحها وذمها ، ويستحسن من الأشياء ما مدح عليه ، ويستهن من ذم من أجله ، ثم اذا شعر بأنه مضطر أن يتبادل مع اخوته واخواته الأخذ والعطاء ، فيوجد عنده الشعور بضرورة تبادل المنافع ، فهو يعطيهم مما يناله ليعطوه مما ينالون ، فيرقى عنده بذلك الحكم الأخلاقى .

فاذا خرج الى العالم وتبادل مع الناس المعاملة ورأى حاجته الى معوتهم وأدرك أنه لا يعيش سعيدا بينهم إلا بمراعاة قوانين

وتقاليد اتسع عنده مجال الحكم الأخلاقي ، فاذا هو تقدم في العلم ساعده علمه على إضاءة السبيل له ليميز بين الحق والباطل ، فكثير من الأعمال الضارة أو الخرافية سببه الجهل بالقوانين الطبيعية ، فاستقبال العامة للحسوف والكسوف بالضرب على الأواني النحاسية أو الحديدية مثلا سببه الجهل بأسباب الحسوف والكسوف ، ومعرفتنا بشيء من الجغرافيا الطبيعية أو الهيئة يبين أن هذا العمل وأمثاله خرافة لا أساس لها ، ومعرفتنا بشيء من قوانين الصحة يغير نظرونا الى كثير من الأعمال ، وانتشار العلم عن النبات والحيوان والمرض والصحة في أية أمة يجعل كثيرا من أفرادها يخرجون على العرف المألوف الذي لا يتفق ونظريات العلوم ، والعلم يزيد الانسان شعورا بشخصيته وبأن له قوة على الحكم على الأشياء ، وأنه ليس أسيرا للعرف والتقاليد .

كذلك دراسة علم الأخلاق ، واستعراض النظريات التي يبنى عليها الحكم الأخلاقي ، ونقدها ، وبيان ما يصح منها وما لا يصح ، وبيان ما كان الناس عليه أيام بداوتهم في عرفهم وتقاليدهم ، وكيف كانوا يحكمون على الأشياء ، وما وصلوا إليه من الرقي ، وكيف تغير نظرهم الى الأشياء برقيهم . كل هذا يجعل الانسان أصح حكما وأصدق نظرا .